# الخطـــاب

دورية أكاديمية محكمة تعنى بالدراسات والبحوث العلمية في اللغة والأدب

## منشورات مخبر تحليل الخطاب

جامعة مولود معمري – تيزي وزو –

للاتصال: مخبر تحليل الخطاب
جامعة مولود معمري – تيزي وزو–
Tél fax: 026 21 32 91
Email:elxitaab.lad@gmail.com

الإيداع القانوني: 1664 – 2006
ISSN : 11-12 7082

**العدد 14**

**عدد خاص بأعمال الملتقى الدولي حول**

**واقع البحوث المعرفية وتحليل الخطاب (أيام : 11 - 12- 13 مارس 2013)**

# مقدّمة في اللسانيات المعرفية

**د. حمو الحاج ذهبية**

**جامعة تيزي وزو**

اللّغة هي الوسيلة التي اعتمدها الإنسان منذ الأزل للتعبير عن حاجياته ومكنوناته الخفية، وهي محل استلهام حاول من خلالها فهم العالم، وفهم الذّات، والعلاقات التي تربطه بكلّ العوالم الممكنة، وإن كانت اللغة متعدّدة الأشكال، فالإنسان وظّفها لأغراضه معبّرا عن قدراته التواصلية والاستنتاجية والاستدلالية، إذ ما فتئ متمكّنا من الولوج إلى الجانب الخفّي واختراقه نظرا لما أوتي به من كفاءة إدراكية ومنطقية واجتماعية....

وقد كان الإنسان منذ القديم يطرح الأسئلة حول ظواهر لها علاقة بحياته اليومية وبتطوّره، ومثل هذه الظواهر التي تشغله كانت أساس نتاجاته الذّهنية، مثلما حاول حصر هذه الظواهر باستعمال التعيين باعتباره الوسيلة الفاعلة لضبط مفهوم ما. لقد انطلقت عند أمم متعدّدة وعبر العصور نقاشات ذي أهمية حول العلاقة الكائنة بين اللّغة باعتبارها وسيلة للتعيين، والذّهن باعتباره حاملاً للأفكار، ومن المؤكد أن يكون الإنسان هو المخلوق الوحيد الحامل لملكة وحيدة معقّدة وفي تطوّر مستمر سواء من النّاحية الذّهنية أو الفزيولوجية، وبمثل هذه الملكة التي وهبه الله بها يختلف عن المخلوقات الأخرى. والنّقاش لا يزال متواصلاً حول ما ذُكر وحول ما اقترح من آليات وتفسيرات أكثر انسجاماً وأكثر عملية لتفسير الظاهرة التي دعاها النّفسانيون واللسانيون بالمعرفة أو الإدراك، ولتطوير هذا النموذج كانت الاستعانة بالإعلام الآلي والعلوم العصبية والذّكاء الصناعي... ذا أهمية بارزة.

ومهما كانت النّتائج المتوصّل إليها من خلال تجربة تورينغ* A.M. TURING ، ومهما كانت النقائص التي لوحظت فيها، فإنّها تعدّ القاعدة الأساس لتطوّر العلوم المعرفية حاليًا والممتدّة إلى مختلف تخصّصات العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم التّجريبية. وللخوض في هذا الموضوع من الأهمية بمكان البحث ومعالجة هذه الأفكار التي تتمثّل في:

- ما هي علاقة الفكر باللغة؟
- هل من وجود للسانيات معرفية؟

– ما هي طبيعة المعارف التي تشكّل اللغة من حيث مكوناتها المختلفة: الصوتية- الصرفية- التركيبية- الدلالية- التداولية.

ومن الأهميّة معرفة أنّ اللّغة إذا كانت تسهم في المعرفة/الإدراك، فذلك لا يضمن في الحقيقة ما يجعل من اللسانيات علما معرفيا أو أنّها تنحدر من العلوم المعرفية، لأنّ الغموض يبقى محيطا بالعلاقة الرابطة بين العلوم المعرفية جميعها وبعد اقتراح التمثّل التركيبي الذي يضبط هذه العلاقات، يمكن محاولة تبريرها بدراسة تاريخ البحث المعرفي، وهو البحث الذي يبقى غامضًا نظرًا للتنافس الوارد بين الوحدات المعرفية والاقترانية. وإذا كان كلّ تخصّص من هذه التّخصصات المشاركة في البحث المعرفي تبحث في التشاكل الموجود بين اللسانيات وحاجياتها. فهل اللسانيات علم معرفي؟

ومن الغريب أنّنا لا نحتفظ من بين العلوم المعرفية إلاّ باللسانيات. في الحقيقة، تتّخذ جميع التّخصصات اللّغة هدفًا لها، ومن هذه التّخصصات نجد: علم النّفس المعرفي، علم النفس الأعصاب، علم الاجتماع، فلسفة اللّغة، إلاّ أنّه من الملاحظ أنّ اللسانيات هي التّخصص الذي يتّخذ اللّغة هدفا خاصا مضبوطا من خلال تعدّد اللّغات، وبالتالي تعدّ اللسانيات علم اللّغة الوحيد♦، ومن هذا المنطلق يمكن أن نجد نقاطا للاتّصال بالتخصّصات الأخرى المعالجة للّغة، وبالخصوص تلك التخصّصات المشاركة في البحث المعرفي.

ويمكن أن نعتبر أنّ الهدف الحقيقي للسانيات مشكّل بوساطة اللّغات، واللسانيات هي التي تعالج اختلافها(اختلاف الوضعية الوصفية، اختلاف الوضعية التاريخية)، ومن هذا المنظور تكون اللّغة تجريدا دون أيّة قيمة تفسيرية في حالة التصنيف، أو بكلّ بساطة تسمية ملائمة لتعيين مجموع الكفاءات (كمفهوم الفونيم، مفهوم الاسناد،...)، وبهذا التّصوّر يبدو أنّ اللسانيات لا علاقة لها بالتّخصصات الأخرى المعالجة للغة من جوانب أخرى. إنّ تعدّد اللغات يبدو ظاهرة غير أساسية، والنّظريات اللسانية التي يحال إليها عادةً في هذا الاتّجاه هي النّحو العام ونحو تشومسكي N.Chomsk، وشومان Chaumjan، أو نحو مونتاق Montague)، ومن ثمّة فإنّ اللسانيات العالمية أو الشمولية Universelle تختلف عن اللسانيات العامّة، وبعيدة عن التّكامل، تتقابل حينا وتتعارض حينا آخر. وبالتالي من الأهمية بمكان أن نطرح هذا السؤال: **هل هناك علم معرفي؟**

يحيل التّعرض لما يدعى بالعلم المعرفي إلى الاستعمال أو التوظيف الأمريكي لهذا المصطلح من خلال مجلة Cognitive science أو ما وظّفه جاردنر[1] Gardner في The 1985

Mind's New Science أو هذا التعريف الذي نجده عند لوماني Le Moigne عن العلم المعرفي يقول فيه:" هو تخصّص محدّد(منذ 1977) بصفة مستقلّة عن طريق هدفه- دراسة العمليات المعرفية بشكل عام، الطبيعية والاصطناعية- وعن طريق نمط تشكّله: التفاعل المنظَّم والمنظِّم لعدد من التّخصصات التي لها علاقة بالعمليات المعرفية: علوم الاحتساب والإعلام، المنطق، اللسانيات، اللسانيات النفسية، علم النّفس المعرفي، علم النفس الأعصاب، علم النّفس الاجتماعي، الأنتربولوجية الاجتماعية، الابستمولوجية. فالإدراك/المعرفة وفعل التعرّف /الإدراك يتحدّد انطلاقا من مجموع العمليات المعرفية الطبيعية والاصطناعية" [2] وهذا بالعودة سواء إلى الذّهن البشري أو إلى العمليات الحسابية الآلية.

**- اللّغة والفكر:**

بما أنّ اللغة تميّز الفكر البشري، فماذا تقدّم لنا عن هذا الفكر ؟، وبطريقة معكوسة: كيف يتواجد العمل الذّهني في اللغة؟ هذه هي إشكالية اللسانيات المعرفية، يقول بوفيريس Bouveresse:" يتعلّق الأمر بتفسير الأعمال اللسانية انطلاقًا من الحلات الافتراضية لنموذج ذهني حيث يُفترض تواجدها سببيا"[3]، إذا كانت اللسانيات"بالمعنى الذي وضعه سوسور" ترتكز على العلاقات بين الشّكل والمعنى، فإنّ على هذه اللسانيات إضافة تفكير حول الدلالات اللسانية في علاقتها بالمفاهيم، وبذلك يُطرح السؤال حول العلاقات الكائنة بين اللغة والفكر، يقول لازارد Lazard:" إنّ الفكر الإدراكي مرتبط دائما باللغة"، وهي المسألة التي عالجتها الفلسفة منذ زمن بعيد وهي محلّ تطوّرات جديدة في إطار العلوم المعرفية. لقد حدثت موافقة نسبية بين عدد من الباحثين من تخصّصات مختلفة تقول إنّ اللغة ليست بضرورية للفكر: الفكر دون لغة شيء ممكن، ولكن يبدو أنّ اللغة تتكوّن من شكل فكري خاص بالإنسان، فاللغة هي التي تشغّل نوعا خاصا من العمليات.

وماذا تقول اللسانيات المعرفية عن طبيعة هذه العلاقات؟ بالنسبة للنّحو العام، فإنّ مميّزات الوحدات اللسانية سوف تفسّر بالخصائص المنطقية لعوامل هذا الفكر التي يمثّلها رمزيا، وهذا يعود إلى اعتبار اللغة جهازا حسابيا بسيطا للربط التركيبي بين "الصيغة المنطقية" و"الصيغة الصوتية"، حيث تضمن كلّ من الصيغتين الحدّ المشترك مع إحدى الوحدات الخارجية أي الوحدة الإدراكية المعرفية، أو الوحدة الصوتية. وباعتبارها انعكاسا

للمفهوم العالمي المدرك على أنّه يدخل في إطار الذّهن البشري، فإنّ الدلالات اللسانية لا تلعب أيّ دور معرفي مميّز.

أمّا بالنسبة لأصحاب النّحو المعرفي، فإنّ اللغة تفتح شرخا على المعرفة (وهذا بمفهوم راستييه [4] Rastier ، والمكرّر من قبل جاكندوف Jackendoff )، وذلك في حدود ما شكّلت البنى الدلالية للغات بذاتها تمفصلات نشيطة. وبالتحديد، فإنّ اللغة تصنف بعض الواجهات في تشكيل المتصوّرات المجردة الموظّفة من طرف الفكر اللساني السابق، وتنظّم بطريقة متغيّرة. إذًا تكمن خصوصية اللساني في "عمليات" التصنيف وتشكيل المحتوى المفهومي، فمثلما يقول لونقاكر Langacker نقلا عن ديسلي [5] Deslés : "إنّ أخذ الدلالة على أنّها ظاهرة معرفية ينبغي أن تحلّل على أنّها كذلك".

وفي محاولة ربط اللساني بالذّهني، اقترحت طريقتان مختلفتان في اللسانيات المعرفية، يصفها راستييه Rastier بالطرائق التمثّلية(طريقة تشومسكي في إطار النموذج المعرفي)، والطرائق الإجرائية (طريقة علم الدلالة الإجرائي للذّكاء الصناعي، ثمّ طريقة الأنحاء المعرفية). نلاحظ أنّ مفهوم التمثّل بعيد عن صفة الاشتراك. صحيح قد انتقد مفهوم التّمثّل من قبل معارضي النموذج المعرفي الذين يرفضون فكرة النسخ الثابت للبنى المنطقية الإدراكية المبنية مسبقا والمضافة إلى "المعلومات" الآتية من الخارج، ولكن يمكن أن تفهم في المنظور البنائي حيث تُدرك اللغة باعتبارها نشاطا بنائيا للتمثّلات الدلالية، وبالتالي لن يتعارض التمثّل مع الإجراء.

وهنا يمكن القول إنّ اللسانيات التي تدعى بالمعرفية، والتي تتحدّد بمقاربة اللغات الطبيعية باعتبارها ظواهر عقلية ليست بمتواطئة مع التغيّرات الكبرى [6] المختلفة أساسا في علاقتها مع المعرفة.

**التغيّر الأول**: الذي يمثّله الباحثون مثل لاكوف وجونسون [7] Lakoff & Johnson1987، ولونقاكر [8] Langacker 1990، 1987، وتالمي [9] Talmy 2000، ينتمي إلى التقليد الوظيفي الذي يهتم خصيصا بالتنظيم المفهومي للمعرفة اللسانية، وموضوعاتها تتلخّص في: الاستعارات المفهومية، والانفعالات، والكتابة، واللغة باعتبارها رمزا للثقافة، والفكر.... ويبدو في خضمّ هذا التغيّر وجود ميدانين من البحث: ميدان الصوت(المتعلق بالفاصل المفهومي بين التركيب وعلم الدلالة)، وميدان التداولية المرتبط باستعمال اللغة.

**التغيّر الثاني**: يشمل النزعة اللغوية التوليدية ويمثّلها تشومسكي Chomsky *1965، 1975، 1995، وبولوك Pollok 1997، ويهتم خصيصا بالتنظيم الصيغي للغة، وبتبسيط أكثر يمكن القول أنّ معرفة اللغة مرتبطة بمعرفة النّحو أيّ بالجهاز العام الذي يسمح بإنتاج عدد غير متناه من الملفوظات انطلاقا من عدد محصور من العناصر.

ومن بين النّقاط الأساسية للاختلاف بين التوجّهين اللسانيين نجد مشكلة الوحداتية، فيمكن وضع اللسانيات الثانية في نطاق النوع الوحداتي، في حين اللسانيات المعرفية الأولى ليست كذلك. وبالنسبة للساني وعلماء النّفس الذين يؤيدون المفهوم الوحداتي والذين يتصوّرون الدّماغ على منوال الحاسوب (باعتباره وحدة للمعالجة التسلسلية للرّموز) يدركون اللّغة وحدة مشكّلة بذاتها من وحدات فرعية، ويقال عنها أنّها مضغوطة من المنظور الإعلامي بإزاء جهاز ترجمة معلومات مركزية، وهذا يعني أنّها تشتغل كعلب سوداء مفتوحة للمعلومة الدّاخلة، ومنغلقة على المعلومات التي يمكن أن تأتيها من أجزاء النّظام الأخرى. وهذا يرجعنا مرّة أخرى إلى موقف اللسانيات من العمليات الذّهنية بتحديد دور اللغة في الاشتغال الذّهني. بالنسبة للعلوم المعرفية التي تدرس اشتغال الذّهن والدّماغ، تشكّل اللغة وسيلة البحث من الدرجة الأولى: علما أنّ الجنس البشري هو المالك الوحيد لمثل هذه "الكفاءة العالية" المعقّدة. نجد الكثير من التّخصّصات المرتبطة بدراسة المعرفة المهتمّة باللغة مثل علم النّفس، الفلسفة، علوم الأعصاب، الأنتربولوجية، ... وكلّ مختصّ في هذه العلوم يحاول إبراز مكانة الكفاءة اللغوية في المعرفة الطبيعية والصناعية ودراسة اشتغالها.

بينما تعدّ المقاربة اللسانية للغة أساسية أو أكثر خصوصية من تلك التّخصصات المذكورة سلفا. إنّها أكثر مركزية لأنّها تقتحم هذه الوسيلة انطلاقا من دراسة بنية اللغات، وحسب تحديد كلاسيكي فإنّ "اللسانيات هي علم اللغة المدرك من خلال تعدّد اللغات الطبيعية".

إنّ هدف مختصي اللغات فيما يتعلّق بالمسائل المعرفية ليس بحديث العهد، ولا يمكن تجاهل النظريات اللسانية الكبرى الموجودة منذ أكثر من قرن، وأعمال النّحويين، والبلاغيين والمناطقة منذ القديم، وما لعبته هذه الأعمال من دور في تغذية التفكير حول العلاقات بين اللغات والفكر والاستدلال والفعل...إلخ. ومن أجل هذا، فإنّ الإشكالية العامة المنتشرة نسبيا لا تلتبس بما يدعى باللسانيات المعرفية. وهذا ما يفضي إلى الإحالة إلى اللسانيات العامّة التي يكمن هدفها في دراسة اللغات متّجهة من الأصوات إلى المعاني(من

الدالات إلى المدلولات)، والبحث عن التّغيرات الموجودة بين اللغات. على أنّ النّظريات اللسانية الواصفة للظاهرة اللغوية قد تشكّلت انطلاقا من بداية القرن العشرين، حيث بحثت بعضها في تكوين نماذج لمجموع اللّغات، والأكثر إجرائية ما نجده في النّحو الصوري، في حين قام بعضها الآخر بمقارنة اللّغات بهدف استخلاص المواقع المشتركة، ومن ثمّة رصد التّغيّرات الملاحظة من لغة إلى أخرى، وهو ما نجده في مقاربات كلّ من كومري Comrie ولازارد Lazard وساليرSeiller .

وتحت تسمية اللسانيات المعرفية، يحدث توافق على الإلمام بمجموع التيارات التي تتقاسم هدفا مشتركا وهو اقتراح نظريات لغوية لا تكون عامّة وإجرائية فقط، ولكن تكون قابلة أيضا للتمفصل بطريقة صريحة مع النماذج العامّة للبنية الوظيفية للذّهن أو البنية العصبية للدّماغ. في هذا المنظور، يكون نظام قواعد اللغة هو موضوع الدراسة بالنسبة للساني باعتبار أنّه يشكّل مكوّنا للذّهن البشري، وله بطريقة أو بأخرى حضور فزيائي في الدّماغ: تدعى هذه المقاربة بالمقاربة الطبيعية.

إنّ اللسانيات المعرفية لا يمكنها الذوبان في علم النّفس أو علم الأعصاب أو الإعلام الآلي، يكمن الرّهان في إثبات خصوصية موضوعها (اللغة من خلال اللغات)، والاحتفاظ بالتّحكم في المفاهيم وفي المناهج، وذلك بمراعاة تمكّن هذه المفاهيم والمناهج من التمفصل مع ما يقابها في التّخصّصات المرتبطة بها. إذًا تقترح اللسانيات المعرفية داخل نظام اللغة ذاته وانطلاقا من دراسة التنظيم البنوي والدّال لهذا النّظام ضبط العلاقات بين اللغة والذّهن والدّماغ.

من هذا الجانب، فإنّ اللسانيات المعرفية لا تدحض في التّقسيم الكلاسيكي للأدوار بين اللسانيات والتّخصّصات الأخرى وبالأحرى علم النّفس. لأنّ توزيع المهام يعود إلى بداية القرن العشرين عندما فرضت اللسانيات نفسها كتخصّص مستقل متميّز عن علم النّفس: بالنسبة لسوسور يدرس اللساني "اللغة" مستقلّة عن الذّوات وظروف الكلام الفردي. في مقاربة تشومسكي أين عُرفت اللسانيات بكونها فرعا من علم النّفس، فإنّ موضوع دراسة اللساني (القدرة بآلية عامّة مشاركة في التكوين البيولوجي للجنس البشري) ليس بأقل تميّزا عن موضوع دراسة النفساني(الانجاز)، وعلى أساس التمييز من هذا النوع بالتحديد تطوّر ما يسمى بالتخصّصات الفرعية.

**جغرافيا الدراسات المعرفية:**

الجغرافيا تحدّد التاريخ، ومن ثمّة يبقى من الصعب تحديد العلاقات الناشئة بين التّخصّصات في خضمّ البحث المعرفي، ويمكن العودة إلى هذه الخطاطة [10] :

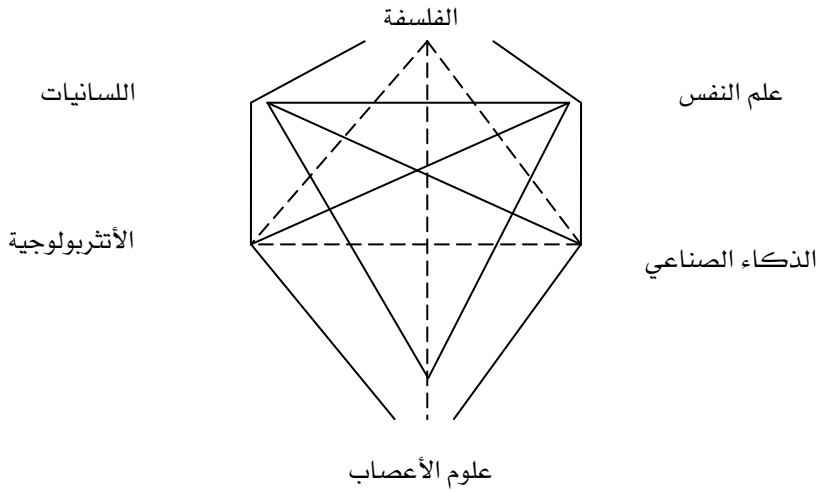


- تشير الخطوط المتواصلة إلا العلاقات القويّة بين التخصّصات.
- تشير الخطوط المتقطّعة إلى العلاقات الضعيفة بين التّخصّصات.

إنّ العلاقات القويّة أو الضعيفة بين التّخصصات تُحدّدها ظاهرة التأثير والتأثّر بينها، إذ قد يسع علم النّفس أن يتأثّر ويؤثّر في اللسانيات، في حين تبقى الصلة بين الفلسفة والذّكاء الصناعي بحاجة إلى أكثر تحليل لأنّها تخضع لمجالين معرفيين مختلفين..... وهكذا مع التّخصصات الأخرى.

وإذا كان هذا الشكل المعرفي المتجانس يطرح المشاكل أكثر ممّا يحلّها، نجد جاردنر Gardner من المعلّقين على هذا المخطّط ملخّصا رأيًا منتشرًا في أوساط الباحثين، فهو الذي يقول: "ما يجعل هذا الحقل موجودا هو الهدف المشترك للبحث: الكشف عن القدرات التمثّلية والاحتسابية للفكر وتمثّلاتها البنائية والوظيفية في الدّماغ" [11]، بينما نجد لوموانى Le Moigne [12] يقدّم وجهًا آخر لهذا الشّكل أكثر تفصيلا وأكثر اختلافا، ويوضّحه بهذه الصورة:

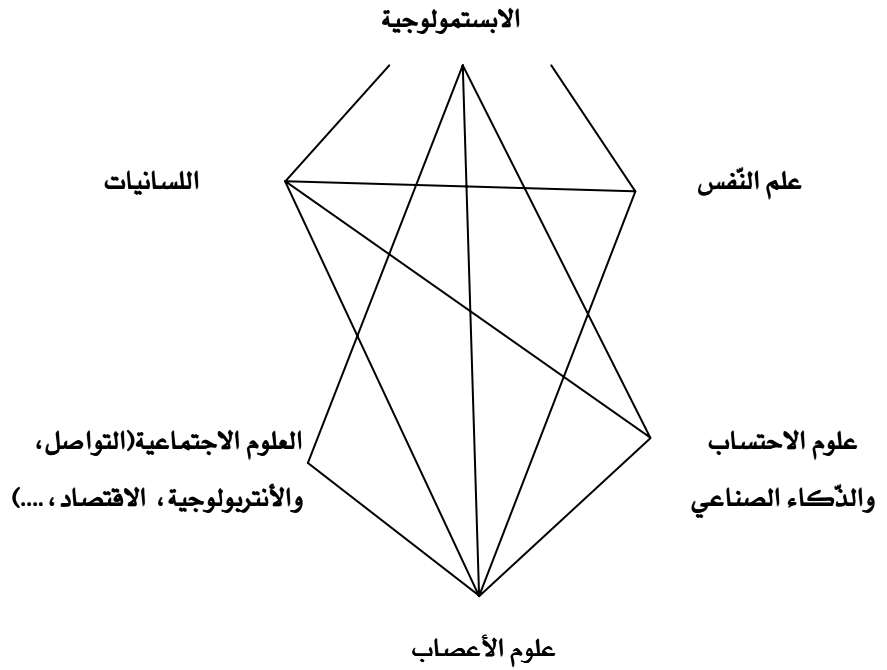


– (أ) العلاقة بين علوم الاحتساب وعلوم الأعصاب تمثّل السبرنيتية Cybernetique

–(ب) العلاقة بين اللسانيات وعلوم الأعصاب تمثّل اللسانيات العصبية Neurolinguistique

–(ج) العلاقة بين علم النّفس وعلوم الأعصاب تمثّل علم النّفس العصبي Neuropsycologie

–(د) العلاقة بين علوم الاحتساب واللسانيات تمثّل اللسانيات الاحتسابية Linguistique computationnele

–(ه) العلاقة بين اللسانيات وعلم النّفس تمثّل اللسانيات النّفسية. Psycolinguistique

والملاحظ في هذا الشّكل:

- استبدلت الإبستمولوجية الفلسفة، وموقعها العلمي غير محدّد بدقّة، فهي تتموقع في مستوى آخر مقارنة بالتّخصصات الأخرى.

- اللسانيات الاجتماعية (الغائبة هنا) مرتبطة باللسانيات، واللسانيات النّفسية مرتبطة بعلم النّفس.
- لم تعد اللسانيات تُعدّ من العلوم الاجتماعية، ويبدو في هذا التّجاهل خطورة واضحة.
- نشوء تخصّصات أخرى باقتران العلوم فيما بينها، وهو ما يبرّر الفكرة المعالجة سلفا، إذ كلّما كانت العلاقات قويّة كلّما سمحت بخلق علوم تلتزم بتناول القضايا التي لم يقدر عليها تخصّص واحد، وبالتالي إثارة إشكالات أخرى تُطوّر دراسة اللغة البشرية وفهمها.

كما نجد أيضا من بلور فكرة الظاهرة الإدراكية أو المعرفية [13] بهذا المخطط الشامل وهو ألبير دي كريستو Albert, Di cristo الذي بيّن بوضوح موقع اللسانيات المعرفية من حيث تقاسمها مجالات البحث مع اللسانيات العصبية واللسانيات النّفسية، وما يدخل ضمنها من مباحث صوتية، وتركيبية ودلالية وتداولية.

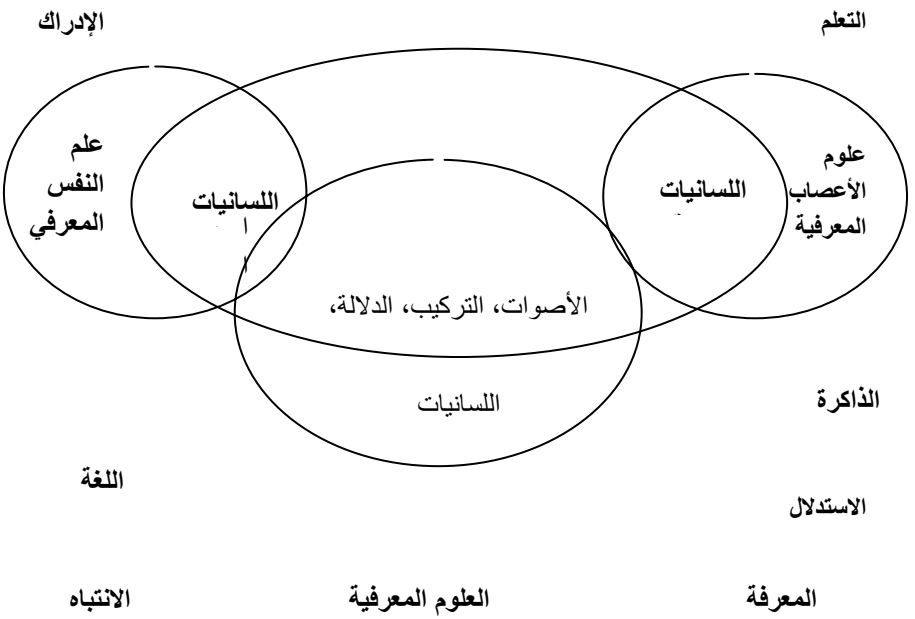


**هل توجد لسانيات معرفية؟**

إنّ العلوم المعرفية ترتبط بدراسة الذّهن- دماغ على المستوى المزدوج: المستوى الوظيفي (باعتباره معالجة للمعلومة وإنتاجها)، والمستوى المادي (باعتباره نظاما فزيائيا متشكّلا من الترابطات العصبية الداخلية). وحسب الباحثين فإنّ الإصرار منصبّ على الثنائية (فكر-

دماغ) (الممتدّة في بعض الأحيان إلى الثلاثية [ ذهن- دماغ - آلة] في المنظور الصناعي أو الظاهري) أو على مفهوم "المعرفة" في علاقة مع ايتمولوجية مصطلح "الإدراك". لقد تعدّدت التّعريفات المقدّمة لهذا المجال، نجد منها:

تعريف أندلرAndler يقول فيه: "إنّ هدف العلوم المعرفية هو الوصف والتفسير، وعند اللّزوم تصنّف التنظيمات الأساسية وقدرات الذّهن البشري من حيث اللغة، الاستدلال، الإدراك، الترابطات الحركية، التخطيط، ....." [14].

أو تعريف هودي وآخرين Houdé et al: "فُرضت العلوم المعرفية اليوم باعتبارها حقلا جديدا للمعرفة الذي يحاول التوضيح عن طريق التجريد بالنمذجة واستعمال التقنيات" سرّ الذّهن" في علاقتها بالمادة: الذّهن، الجسد والحاسوب" [15].

ونجد تعريفا آخر من خلال Blackwell Dictionnary of cognitive Psychology لـ M.Eysenk et al (1994). "إنّ مصطلح العلوم المعرفية يحيل إلى الدراسة متعدّدة العلوم لاكتساب المعرفة واستعمالها".

ثمّ لدينا تعريف فاريلا Varela: "لأوّل مرّة، يعترف العلم (...) بشرعيته في استكشاف المعرفة في ذاتها وعلى كلّ المستويات، وهذا بتجاوز الحدود التقليدية لعلم النّفس وللابستمولوجية التي احتضنتها لمدّة طويلة" [16].

وفي التوجّه نفسه يقول لازارد Lazard: "نعني بالعلوم المعرفية تلك العلوم التي يكمن هدفها في المظاهر المختلفة للنّشاط الحسّي والذّهني التي يتعرّف الإنسان من خلالها على العالم الذي يحيط به. نجعل في هذا الإطار: علم النّفس، الذّكاء الصناعي، نظرية التّواصل، وفلسفة الذّهن، .....إلخ" [17].

كما أورد لازارد Lazard رأيه في اللسانيات المعرفية: "ندمج عادة اللسانيات، وهو أمر وارد إذا اعتقدنا أنّ الفكر الإدراكي مرتبط باللّغة. وفي المقابل إذا كنّا واعيين بخصوصية الظواهر اللغوية، فإنّنا ننظر إليها كعلم مقرون ولكن متميّز. وفي كلتا الحالتين يبقى مفهوم اللسانيات المعرفية غامضا. في الحالة الأولى إنّ أيّة لسانيات تعتبر معرفية، وفي الحالة الثانية لا يوجد أيّة لسانيات معرفية".

إنّ السؤال المطروح من قبل لازارد Lazard هو كالتالي: "هل للسانيات المعرفية من معنى وهل هي مبرّرة نظريا؟ إنّ تسمية اللسانيات المعرفية تعدّ اعترافا وذلك انطلاقا من مطالبة تيارات متعدّدة بذلك بطريقة أو بأخرى، "اليوم لا يوجد لساني لا يتملّق من تطبيق لسانيات أو

اللسانيات المعرفية، فالجانب المعرفي أصبح من صميم الموضة [18]. يُذكّر استعمال الرابطة "أو" في هذه المقولة بأنّ اللسانيات المعرفية ليست بتيار موحّد، ولكنها تشمل عدّة تيارات متضاربة. وبمفهوم كاترين فوك (2004)، فإنّ شروط بروز وتطوّر ما ينطوي عادةً تحت مصطلح " اللسانيات المعرفية" يسمح بإثارة هذا التنوّع.

**هل كلّ لسانيات هي لسانيات معرفية؟**

باستثناء النّظريات المؤسسة على البيهافيورية* التي ترفض كلّ ظواهر المعنى من مجال دراستها، يمكن القول أنّ كلّ النّظريات الجديرة بهذه التسمية هي التي كان هدفها دراسة العلاقات بين الشكل والمعنى، وإن كان هذا الهدف يستحق صفة "المعرفي"، فإنّ أيّة نظرية لسانية هي نظرية معرفية، يقول أندلر Andler: "إنّ مقاربة(العلوم المعرفية) عن طريق الهدف والإجراء لا تقدّم إلاّ مجموع برامج بحث منبثقة من تخصّصات متعدّدة، ونتساءل ما الدّور الذي يمكن أن تلعبه هذه التّخصّصات، وما الذي يبادر بالخطوة العلمية؟ سوف يكون هناك حذف لعدّة أشياء (...) وما هو غير متوقّع هو وجوب رفض الأعمال المنبثقة من التّخصّصات التي تشكّل ما يدعى بـ"الكوكبة المعرفية"- اللسانيات، علم النّفس، الأنثربولوجية، علوم الأعصاب، الذّكاء الصناعي، المنطق، والفلسفة- "[19]. وهي أعمال لا تعارض لا في أساسها ولا في منهجيتها، ولكن ليس لها علاقة متميّزة مع الإشكالية المعرفية، فهي تتطوّر خارجها، وليس من مهامها تقديم الوسائل.

**اللسانيات التي يقال عنها أنّها لسانيات معرفية:**

نشأ في الولايات المتّحدة التياران الأساسيان الذان يستندان إلى "اللسانيات المعرفية" . من جانب نجد النّحو العام الذي يدخل في إطار النموذج الكلاسيكي للنزعة المعرفية "cognitivisme"، ومن جانب آخر نجد النّحو المعرفي الذي يستند إلى نموذج آخر يوصف أحيانا بالبنائي وهي النزعة البنائية "constructivisme". وممّا يبدو فإنّ هاتين النّزعتين تحيلان إلى ما يدخل في إطار البنية اللغوية، وما يدخل في إطار الجانب المعرفي الذي يتجاوز البنية ذاتها.

ممّا ذكرنا سلفا، يمكننا الاحتفاظ بالنقاط التالية: نشأت اللسانيات المعرفية في الولايات المتّحدة الأمريكية، وأدّى هذا المنعرج النّظري في حالة النّحو المعرفي إلى إعادة النّظر في الفرضيات النّحوية باستثناء التيار ما بعد الوظيفي Néo-fonctionnaliste الذي يشكّل حالة خاصّة تستحق تطوّرا خاصّا من قبل عدد من الباحثين الأروبيين، ومن خلال ذلك نفهم

الإثبات المفاجئ للازارد Lazard الذي يعتبر أن تسمية "اللسانيات المعرفية" باعتبارها عبارة مصطنعة لا تحتفظ بمعناها خارج الولايات المتّحدة، وفي كلّ الأحوال عند كلّ من لم يتعرّض لسلطة النزعة التوليدية التحويلية.

نعود الآن إلى السؤال المركزي المطروح من قبل لازارد، والذي يمسّ شروط وجود اللسانيات المعرفية. بالنسبة لهذا الباحث، إذا أرادت أيّة نظرية لسانية في أن تكون معرفية، فإنّها ستواجه بالضرورة معضلة كبيرة، إمّا أنّها تعود إلى التّصور التقليدي للغة باعتبارها نظامًا من العلامات بحثا في علاقة الشكل بالمعنى، وفي هذه الحالة لن يتعلّق الأمر إلاّ باللسانيات (بالمفهوم التقليدي للمصطلح)، وبهذا يقول لازارد Lazard:" إنّ الصفة كبيرة: اللسانيات المعرفية هي اللسانيات العامّة وفقط"[20]، أو أنّها تخرج عن ميدان تخصّصها محاولة إيجاد معلّلات خارجية للظواهر اللسانية الموصوفة أو استنتاج خصوصيات عامّة للذّهن البشري إنطلاقًا من الملاحظات، وفي هذه الحالة لن يتعلّق الأمر باللسانيات لأنّ هذا النمط يحتمل خطرا، وهو انحلال اللسانيات في الجانب المعرفي، وبطريقة أخرى هو تجاهل خصوصيتها"[21].

**– تشومسكي والمعرفية:**

يعود التأريخ الرسمي للتيار المعرفي إلى سنة 1956، إذ جمعت محاضرات لنعوم تشومسكي N. Chomsky(اللساني)، وهربرت سيمون Herbert Simon (عالم النّفس)، ومارفين منسكي M.Minsky (مختّص في الذّكاء الصناعي). تهدف هذه المؤسسة المتعدّدة العلوم إلى تحديد عمل الذّهن من خلال الملكات التي يطوّرها وبالخصوص ملكة اللّغة[22]. إنّ الفرضية في الأساس تتمثّل في إمكانية تحديد المعرفة الإنسانية بطريقة الآلة بمصطلح الحسابات المطابقة لمعالجة مختلف أنواع المعلومات التي يستقبلها الإنسان، وهكذا وجدت اللسانيات الصورية مكانة مهمّة في المؤسسة العامّة للعلوم المعرفية.

والنموذج الكلاسيكي الذي يترأس هذه المؤسسة يدعى بـ"الإحصاء التمثّلي الرّمزي" وهو مؤسس على فكرة الحسابات على الرموز. عرفت هذه الرموز بحقيقتها الفزيائية أي العصبية البيولوجية والدلالية، وبطريقة أو بأخرى فإنّ هذه الرّموز تدخل في إطار الدّماغ وتمثّل العالم، أمّا النّشاط اللغوي فيقوم بمعالجة المعلومات باستخدام القواعد التركيبية للتعامل الرّمزي، وفي هذا إحالة غير مباشرة إلى النزعة البنائية والنزعة المعرفية.

إنّ التوجّه المعرفي يتأسس في نهاية الخمسينيات على فكرة "الّذهن الآلي" الذي يتقاسمه كلّ من علم النّفس المعرفي، والفلسفة المعرفية والذّكاء الصناعي*، أمّا التناظر فلم يستغل إلاّ مع نهاية سنة 1980 في إطار التقارب مع علوم الأعصاب. وبتبنّي هذا النموذج الكلاسيكي، شكّلت نظرية تشومسكي عددا من الخيارات النّظرية والمنهجية، وباختصار فهي خطوة افتراضية- استنتاجية، (منظور وحداتي على طريقة فودور Fodor) تقول أنّ الملكة اللغوية فطرية♦، وترتكز على القدرات الخاصّة منفصلة عن الجانب المعرفي العام، وإدراك اللغة باعتبارها وسيلة للتعبير عن الفكر يسمح بنقل المعلومة الخاصّة بالعالم، والعودة إلا التنميطات Modélisations من النّوع المنطقي الحسابي♥. وربّما هو انتقال من الجانب الفطري المرتبط بالقدرات الذّهنية التي تسمح باكتساب اللّغة إلى الجانب المعرفي الذي يفرض على الإنسان الاندماج في المجتمع، وبالتالي إحداث نوع من الإتمام والتّكامل حتّى يتمّ التّعرّف على العالم بفضل الحواس وبفضل المكتسبات الأخرى: الاجتماعية، والتّعلّمية، والثّقافية، والتربوية.

**المنظور المعرفي الاحتسابي لتشومسكي**

تتمثّل الفرضية المؤسّسة للمشروع الذي جمع كلاّ من نعوم تشومسكي Chomsky .N، وهربرت سيمون Herbert Simon، ومارفين منسكي M.Minsky في إمكانية تحديد المعرفة الإنسانية على طريقة الآلة بمصطلحات الحسابات المطابقة لمعالجة مختلف أنواع المعلومات التي يستقبلها الإنسان. يتمّ إدراك الذّهن في هذا المنظور باعتباره نظامًا معقّدا لمعالجة المعلومة، مؤسسا على مجموع القواعد التي هي سبب في عدد غير محدود من العمليات والحسابات الذّهنية، ومن هنا ظهر مصطلح النّزعة الذّهنية في اللسانيات.

إنّ الفلسفة الذّهنية التي نادى بها تشومسكي هي في منطلق هذا التّحوّل الجذري للسانيات التي كانت تهيمن عليها النزعة البيهافيورية. لم يكن الأمر بالنسبة لتشومسكي سهلا لإعادة النّظر في كيفية نشوء اللّغة، فكان لزاما عليه العودة إلى النّظرية العقلية (ديكارت) لتفسير الفكر، وكذالك العودة إلى مدرسة بور روايال. وفي دراسته السابقة، أشار تشومسكي إلى ضرورة إدراك موضوع اللسانيات كحقيقة ذهنية بدل النّظر إليها كسلوك لساني قابل للملاحظة. وفكرة تشومسكي حول قواعد التّحويل التي تنطلق من النّواة هي أساس مفهوم اللسانيات الاحتسابية وأساس الدراسات التي تستوحي من اللّغات الصورية لوضع ما يدعى بالمعالجة الآلية للّغات.

والعودة إلى نظرية الوحدات الذّهنية يعيدنا إلى جيري فودور Jerry Fodor التي تأثّر بتشومسكي وبنظريته. أكّد جيري فودور أنّ الذّهن لا يعمل كوحدة كاملة، واللغة ضمنه ليست إلاّ وحدة ضمن الوحدات الأخرى: السمعية، التّذكرية، اللّمسية.... واللّغة باعتبارها وحدة تتكوّن من وحدات صغرى من أنواع مختلفة: صوتية، صرفية، مرفولوجية، تركيبية....وما نستنتجه من نظرية فودور هو:

– تميّز الوحدات بمظاهر آلية، لا واعية، سريعة، متوازية ومستقلّة بعضها عن بعض، وهذا في مقابل النّظام المركزي المتميّز بالوعي، والبُطء والتّسلسل.

–عمل الذّهن لدى الإنسان خاضع للتراتبية في معالجة المعلومات مهما كانت طبيعتها، والإنسان يشغّل عدّة أنظمة لدى استقبال المعلومة.

أشار فودور Jerry Fodor إلى ثلاثة مكوّنات تشكّل هذه الأنظمة*، وما يميّزها هو استقلال بعضها عن بعض وهي: محوّل الإرسال Transducteur، والنّظام المحيطي S. Périphérique، والنّظام المركزي S. Central.

هناك مناطق في الذّهن تتكفّل بتوزيع المعلومة وفقا لمبدأ هذه المكوّنات:

–محوّل الإرسال يقوم أثناء استقبال الرّسالة بمعالجتها وترجمتها على شكل لغة، أو حركة، أو صوت... ففي هذه المرحلة يتمّ تحديد المعلومة وتصنيفها.

–النّظام المحيطي يقوم بمعالجة المعطيات المدركة من طرف أحد قنوات محوّل الإرسال بتوجيه المعطيات اللسانية في أنظمة لسانية ثانوية/فرعية.

أمّا النّظام اللساني فهو نظام مميّز نظرا لطبيعته المعقّدة مقارنة بالأنظمة الأخرى، ذلك أنّ المعطيات اللسانية تعالج بطريقة وضعية، أي في مظهرها البنيوي والوضعي لا غير، أمّا المظهر التداولي والتّلفظي فهو من اختصاص النّظام المركزي.

يسمح النّظام المركزي بمقابلة المعطيات التي تصله عن طريق النّظام المحيطي وهو ما يساعده على ترجمتها بشكل صحيح، وبالتالي تمكين الإنسان من فهم دلالة كلّ المعطيات المتضمّنة في الرّسالة.

وللتمكّن من إنجاز هذه العملية، فإنّ الدّماغ المركزي يوظّف عمليات استدلالية محدّدة تفرضها البُنى المنطقية والسياق المتشكّل في الذّاكرة.

وبهذا الطّرح، يمكن القول أنّ ترجمة المعطيات اللسانية هي من مهام النّظام المحيطي الّذي يمثّل وحدة مغلقة محدّدة للبنية الوضعية للغة، في حين يعدّ فهم اللّغة من مهام النّظام المركزي، ويمكن أن نمثّل ذلك بهذا الشّكل:

النّظرية اللسانية البنيوية ⟵ النّظام المحيطي

النّظري اللسانية التّداولية والتفاعلية ⟵ النّظام المركزي

وإذا أخذنا مثالا لجورج يول [2 3]: "هناك امرأة جالسة على مقعد في حديقة عامة وأمامها كلب ضخم مستلق على الأرض، جاء رجل وجلس على المقعد إلى جانب المرأة

**الرّجل**: أيعض كلبُك؟

**المرأة**: كلاّ.

(حاول الرّجل مداعبة الكلب، عضّ الكلب يدّ الرّجل)

**الرّجل**: آخ أنتِ، قلت أنّ كلبك لا يعُض.

**المرأة**: هذا صحيح، ولكن هذا ليس كلبي".

من الملاحظ أن الرّجل في هذا المثال توقّفت عملياته الذّهنية عند حدود النّظام المحيطي، إذ ترجم الجملة من حيث هي وضع أي اعتمد على السياق اللغوي دون غيره، بينما لم تترجم الجملة في النّظام المركزي نظرا لافتقاد المعطيات التداولية التي تحيل إلى عدم نجاح التّعاون بين الشخصين، إذ لم يحدّد الرّجل مقاصده بشكل جلي، وإجابة المرأة لم تكن إلا مطابقة للسؤال المطروح نظرا لعدم توافر الشروط التواصلية التي تسمح بنجاح العملية التداولية.

نتوّصل في الأخير إلى أنّ اللغة تميّز الفكر البشري، وتفسر كيفية تواجد العمل الذّهني فيها. هذه هي إشكالية اللسانيات المعرفية، فإذا كانت اللسانيات "بمصطلحها الصرف" ترتكز على العلاقات بين الشّكل والمعنى، فإنّ عليها إضافة تفكير حول الدلالات اللسانية في علاقتها بالمفاهيم، وبذلك يُطرح السؤال حول العلاقات الكائنة بين اللغة والفكر، وهي العلاقة التي عالجتها الفلسفة منذ زمن بعيد وهي محلّ تطوّرات جديدة في إطار العلوم المعرفية. ولقد حدثت موافقة نسبية بين عدد من الباحثين من تخصّصات مختلفة تقول إنّ اللغة ليست بضرورية للفكر: الفكر دون لغة شيء ممكن، ولكن يبدو أنّ اللغة تتكوّن من شكل فكري خاص بالإنسان، فاللغة هي التي تشغّل نوعا خاصا من العمليات، وبذلك تتبوّأ مكانةً أساسية ضمن جميع العلوم الإنسانية والاجتماعية والتجريبية.

الهوامش:

*- في 1935، قام ألان تورينغ وهو شاب متقن للرياضيات بإيجاد إجابة للمشكلة التي طرحها هيلبر Hilbert في 1928، ومقاله حول الأعداد القابلة للاحتساب بتطبيق طريقة Entscheidungproblem يصدر عام 1936. وهذه الأعداد يمكن أن تكون محسوبة بآلة قادرة على قراءة الرّموز وكتابتها على متوالية محدّدة من الخانات، وذلك حتّى يتمكن من قراءة بعض الرّموز على أنّها موجّهات للتغيير، وبهذا الصنيع يؤكد تورينغ على إمكانية صنع مثل هذه الآلة. ينظر: Rastier. F, Linguistique et recherche cognitive, Histoire, Epistémologie ; Langage Revue 11-I, 1989, P 15.

وتتمثّل التّجربة في اختبار الذّكاء الصناعي المؤسس على فكرة تقليد المحادثة البشرية، ويتمثّل الاختبار في وضع الإنسان في مواجهة لغوية مع الحاسوب، وفي مواجهة إنسان مع إنسان أعمى: فإذا كان الإنسان الذي يبادر إلى المحادثات غير قادر على تحديد الآلة من بين مخاطَبيه، فإنّه يمكن اعتبار أنّ الآلة قد اجتازت الاختبار بنجاح.

♦- وهذا تطبيقًا للنّظرية السوسورية التي انطلقت من فكرة "دراسة اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها"، وهي فكرة تبلور دراسة اللغة دراسة علمية، موضوعية، وداخلية. ينظر: Dessaussure.F, cours de linguistique générale, Dalila Morsly, ENAG editions, Lger 1990, P IX.، وينظر أيضا: محمد حسن عبد العزيز، سوسور رائد علم اللغة الحديث، دار الفكر العربي، القاهرة 1989، ص 14.

1 - Gardner. H, The Mind's New science: A History of the cognition revolution, New York: Basic Books, 1985.

2 – Le Moigne, J.L, « Genèse de quelques nouvelles sciences : de l'intelligence artificielle aux sciences de la cognition » , In Le Moigne, J.L, Editions Mécanismes de l'intelligence, intelligence des mécanismes, Fayard, Paris 1986, P239.

3 - Bouveresse. J, « psychologie et linguistique : qu'a-t-il de proprement mental dans la signification et la compréhension ? », in De Mattia, M & al Editions, 2001 , P 32.

4 - Rastier.F, « la sémantique cognitive : éléments d'histoire et d'épistémologie », Histoire et épistémologie, Langage 15/1, Paris 1993, 168.

5 - Descles. J.P, « Réflexions sur les grammaires cognitives », Modèles linguistiques, 29/XV , Paris 1994, P 77.

6 - Albert, Di cristo : « Prosodie et cognition », Conférence, Université de Toulouse, Mai 2002, P 03.

7- لاكوف وجونسون Lakoff & Johnson : نظرية الاستعارة.

8- لونقاكر Langacker : نظرية النّحو المعرفي.

9- تالمي Talmy : نظرية علم الدلالة المعرفي.

*- نعوم تشومسكي: هو عالم اللغة المعاصر الأهم والأشهر. كان تأثيره على علم اللغة المعاصر حاسما، تتلمذ على يدّ اللغوي زليغ هاريس، أحد أكبر منظري اللسانيات التوزيعية في بداية خمسينيات القرن العشرين، وصاغ في نظريته The Logical Structure of Linguistic Theory التي كتبها عام 1955 الأدوات التي سمحت لأول مرة لعلم النحو وعلم الدلالة الالتحاق بعلم وظائف الأصوات في ميدان الدراسات الدقيقة المعللة تجريبياً.

10 – Rastier. F, Linguistique et recherche cognitive, Histoire, Epistémologie ; Langage Revue 11-I, 1989, P10.

11- Gardner, Howard, The Mind's New Science: A history of the cognitive revolution, New York: Basic Books, 1985.

12 - Le Moigne, J.L, « Genèse de quelques nouvelles sciences : de l'intelligence artificielle aux sciences de la cognition », in Le Moigne, J.L, Editions Mécanismes de l'intelligence, intelligence des mécanismes, Fayard, Paris, P 51.

13 - Albert, Di cristo : « Prosodie et cognition », Conférence, Université de Toulouse, Mai 2002.

14 – Andler, D, « Sciences cognitives », in Encyclopedia Universalis, 1989.

15- Houdé . O & al, Vocabulaire des sciences cognitives, P.U.F, Paris 1998, P 01.

16 - Varela. F, Invitation aux sciences cognitives, Le seuil, Paris 1996, P10-11.

17 - Lazard. G, «What are we topologists doing? », in Frajzyngier &al Editions, 2004, P 03.

18 - Lazard.G, «What are we topologists doing? », P 01

*- البيهافيورية أو السلوكية le béhaviorisme هي مدرسة في علم النفس، بلغت أوج تأثيرها بين عامي 1920 و1960، وكانت ترفض دراسة الفكر على أنه غير علمي، وسعت إلى تفسير السلوك والتعلم عند الكائنات، بما في ذلك البشري، من خلال قوانين الإشراط بالمثير – الاستجابة .

19 - Andler. D, « introduction. Calcul et représentation: les sources » in Andler. D, (éditions) introduction aux sciences cognitives, Paris Gallimard, P14-15.

20– Lazard. G, «What are we topologists doing? », P 14.

21– Lazard. G, «What are we topologists doing? », P 14.

22- Fuchs. C, La linguistique cognitive existe-t-elle ?, Quaderns de filologia 14 « New perspectives in cognitive linguistics », P115-133.

*- وهو ما يحيلنا إلى الثلاثية العلمية المختلفة التوجّه التي جمعت بين نعوم تشومسكي وهاربرت سيمون ومارفين منسكي.

♦- الطبيعة الفطرية للغة فكرة نادى بها نعوم تشومسكي وهو في أحضان المدرسة التحولية التوليدية مخالفا بذاك ما جاءت به المدرسة السلوكية التي تنظر إلى اللغة نظرة شكلية تجعل اللغة تُكتسب في المجتمع عن طريق المثير والاستجابة.

♥– نعني بذلك العودة إلى فكرة العمل الذي تؤديه خلايا الدّماغ أو الأعصاب لفكّ شفرات الرسالة، والانتقال بها من الجانب اللغوي المحض إلى الجانب المعرفي الملمّ بالمعلومات الإضافية التي لا تستقى إلاّ من البنية الخارجية للغة ذاتها.

*– وقد فسّر ذلك الدكتور عمر بلخير في مقال له بعنوان: اللسانيات والإدراك.

23– جورج يول، التداولية، ترجمة قصيّ العتابي، دار الأمان، الرباط 2010، ص 66.